الفصل الأول

الأشوريون والعقدة البابلية

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

الأشوريون والعقدة البابلية

الملك آشور بانيبال

آخر ملوك آشور العظام وأشهرهم يكتب اسمه بالمقاطع الهجائية: آشور- باني - بال Assur-bani-pal ويعني آشور أنجب ولداً، وقد ذكره الإغريق والرومان تحت اسم سَرْدانَبالوس Sardanapallos وهو الولد الثالث للملك أسرحدون[ر]. حكم مابين عامي ٦٦٨-٦٢٦ق.م، وبلغت آشور في عهده ذروة مجدها في الفن والعمارة والأدب والعلوم.

في أواخر أيام أسرحدون، وقبيل وفاة والدته الآرامية البابلية نَقْية، وبتأثير منها، عين أسرحدون ابنه البكر شمش - شوم - أوكين على عرش بابل[ر]، وعين ولده الثالث آشور بانيبال وليًا للعهد في آشور. وقد لاقى هذا التعيين معارضة شديدة من موظفي القصر ورجال الدين. وحتى لا تقع فتنة دعا آشور بانيبال أولياء الأمر في آشور لبحث الموضوع، فأقنعهم، وأخذ على أفراد الأسرة الحاكمة ورجال الدين وأعيان البلاد واحكام التعيين عهداً بتأييده وعدم الثورة عليه.

تمهيد

ظهر مؤخرا في الأسواق كتاب جديد تحت عنوان "الاكتشافات العشر التي أعادت كتابة التاريخ " للدكتور باترك هانت ومن هذه الاكتشافات مكتبة الملك الأشوري آشور بانيبال (٦٦٨ _ ٦٢٧ ق. م.) الذائع الصيت ليس لتوسعات الإمبراطورية الأشورية في عهده التي لم يبلغها أحد من قبله ولا من بعده في كل الهلال الخصيب فحسب، بل لكونه أول ملك أسس مكتبة فريدة من نوعها في تاريخ البشرية جمعاء.

ينتمي آشور بانيبال إلى السلالة السركونية التي أعطت للأمة الأشورية عصرها الذهبي في تحقيق وحدة الهلال الخصيب لأول مرة في التاريخ.

العصر الذهبي الأشوري

استطاعت الآلية الحربية الأشورية أن تؤمن حدودها الشرقية مع الشعوب الإيرانية وكذلك حدودها الشمالية حيث هزموا الحثيين والشعوب الآرية الأخرى وبقيت الجبهة الجنوبية الغربية التي كانت تتزعمها مصر.

أراد الملك أسرحدون، ابن الملك سنحاريب (٦٦٩_ ٦٨٠ ق. م.) أن يحذو سياسة أسلافه التقليدية والرامية إلى محاربة مصر، فسار بجيش جرار حتى بلغ وادي العريش وهو في طريقه إلى الدلتا. ولكنه اضطر إلى وقف زحفه هذا والعودة لمجابهة قيام تحالف بين الآريين والميديين والسكيثيين بحيث هزمهم شر هزيمة أيضا، لأنهم كانوا يهددون سلامة ووحدة الإمبراطورية الأشورية.

بعدها استأنف الجيش الأشوري زحفه إلى مصر بعد إخضاع بلاد الشام لسلطانه وللمرة الأولى وطأت أقدام الجيش الأشوري القارة الأفريقية بدخولها مصر بحيث أقدم الملك أسرحدون على لقب نفسه بملك مصر العليا والسفلى وملك أثيوبيا (الحبشة) شيئا لم يفعله أحد من قبله.

في هذه الأثناء كانت الثورة تهدر في بلاد آشور لأن الشعب لم يتحمل نصب آشور بانيبال الابن الثاني للملك أسرحدون ولي العهد للمملكة على نينوى وشمشوم اوكين إبنه البكر ملكا على بابل، لكن أستطاع الملك أسرحدون بيد من حديد أن يخمد نيرانها

في السنة التالية اضطر أسرحدون التدخل في شؤون مصر من جديد بعد أن علم أن [طرهاكة] Tirhakah ملك الحبشة تمكن من استرداد مدينة "ممفيس" وإثارة الشغب والقلاقل في البلاد، ولكن لسوء الحظ ألم به مرض عضال لم يمهله سوى بضعة أيام حيث توفي على إثرها.

وبناء للوصية الملكية تبوأ الملك آشور بانيبال العرش وأول بادرة كانت له إذ أمر قائد

قواته "ربشاقي" بمتابعة الزحف إلى مصر حيث استطاع الجيش الأشوري أن يلحق شر هزيمة بجيش "طرهاكه" وبذلك أعاد النظام إلى البلاد من جديد ولكن ما أن وصل الجيش الأشوري بلاد الشام في طريق عودته إلى بلاد آشور، حتى أعلن ملوك الدلتا العصيان مرة أخرى. وللمرة الثانية اجتاحت القوات الأشورية وادي "النيل" مصر حيث واصلت زحفها حتى بلاد النوبة.

والجدير بالذكر أن هذه الحملة أسفرت عنها نتيجة إيجابية أخرى ألا وهي استتباب السلم والأمان في كل أرجاء البلاد السورية وهو ما وصفه المؤرخون قاطبة بالسلام الأشوري / Pax Assyriaca بحيث لم يجرؤ أحد على إثارة الفتن والقلائل وبذلك عمت شهرة الملك آشور بانيبال في سائر أرجاء المعمورة مما دعا المؤرخون بالقول، "أن الأشوريين حقا جديرون بأن يطلق عليهم لقب رومان الشرق".

كان الملك آشور بانيبال يبذل قصارى جهده رغم انشغاله بالحروب لإنجاز مشروع المكتبة الملكية الأشورية، ولكن الشيء الوحيد الذي جعل آشور بانيبال ذا شهرة فاقت كل الذين سبقوه أنه عمل جهده الدءوب لإتمام المكتبة هذه، أضف إلى ذلك أنه كان يلم الماما جيدا بالكتابة الإسفينية. المسمارية قراءة وكتابة وهاك النص التالي ما يدعم ذلك:

أما أ. ليو أوبنهايم / A. Leo Oppenheim يقول بحق الملك آشور بانيبال كيف كان يكرر وصف تدربه وانجازاته كأستاذ ومحارب في وقت واحد،إذ يقول: لقد احتفظت بكل المواد الأولية بدءا من السومريين، لقد درست حكمة نابو (النبي) واكتسبت فن الكتابة كله ومعرفة معظم الحكماء، كما تعلمت رماية القوس وريادة الخيل وقيادة العربات.

وهكذا استطعت قراءة النصوص السومرية الغامضة والأكدية العويصة وبحثت في الكتابة المسمارية على الحجر من قبل الطوفان.

ولإتمام مشروع مكتبته الملكية على أكمل وجه، أصدر أمرا ملكيا بحيث عممه على سائر أرجاء البلاد وهذا نصه: "ابحثوا وأرسلوا لي اللوحات النادرة التي تعرفون أنها غير موجودة في بلاد آشور... يجب أن لا يكون هناك مانع لكم، وبالفحص والتدقيق تجدون ما هو جيد لقصري وعليكم الحصول عليها بأي ثمن وإرسالها لي".

آفاق جديدة

منذ أكثر من مائة وخمسين سنة كل ما كنا نعرفه عن العالم القديم عامة وعن بلاد الرافدين خاصة لم يكن سوى ما تركه لنا كل من المؤرخ البابلي "برخوشا" والكتبة والمؤرخون اليونان إلى جانب الكتاب المقدس / العهد القديم. ولكن الجدير بالذكر أن كل تلك المعلومات والأخبار كانت ناقصة أحيانا و مشوهة أحيانا أخرى. نحن معشر الشعب الأشوري حقا مدينون لأولئك العلماء والمجتهدين الغربيين الذين أماطوا اللثام عن أنقاض نينوى، المدينة العظيمة والعاصمة الأشورية وغيرها من المواقع في بلاد ما بين النهرين باندفاعهم المتواصل لمعرفة أسرار الشرق الأدنى وبلاد ما بين النهرين خاصة ويتصدر القائمة هذه كل من " أميل بوتا / 1870 _ 1802) Emil Botta) الفرنسي والبريطاني " أوستن هنري لايارد / Sir Austin Layard " وابن نينوى البار هرمز رسام (١٨٢٦ _ ١٩١٠) وكثيرون آخرون. كما ينبغي علينا أن نثمن أيضا ما قام به الجهابذة الغربيين الذين استطاعوا فك رموز الكتابة المسمارية وقراءتها.

ويتبين أنها انصبت على إحدى وأربعين علامة بحيث تؤلف في مجموعها بما يمكن تسميته بحروف الهجاء / ألف باء ومن هؤلاء أدوار هينكس 1866)Edward Hinkes _ ١٧٩٢) وفوكس طالبوت H. Fox Talbot (1800 -1877)والسر هنري ل. رولنسون 1895) Henry L. Rawlinson _ ١٨٠٠) وجوليس أوبرت Jules Oppert (1905 _ 1825))

إماطة اللثام عن أنقاض نينوى المدينة العظيمة

إن الحدث الأكبر وذا أهمية بالغة كان العمل الجريء الذي قام به ابن نينوي " هرمز رسام" باكتشافه المكتبة الأشورية الملكية / مكتبة الملك آشور بانيبال أعظم وآخر ملوك الأشوريين.

إن إماطة اللثام عن أنقاض نينوى، المدينة العظيمة بعد أكثر من ألفين وخمس مائة سنة وقصة التحريات والتنقيبات التي بدأت عندما كان أميل بوتا _ 1802) Emil Botta 1870) القنصل الفرنسي في مدينة الموصل .

لاحظ - بوتا - أثناء مسيره اليومي عابرا نهر الدجلة إلى الطرف الآخر من النهر مارا بين التلال القريبة من نهر الدجلة أن الرياح (عوامل التعرية) وسنابك الخيل قد كشفت الأبنية القديمة المطمورة، وكل هذا قل ما استرعى انتباهه، ولكن بما أنه كان رجلا مثقفا كان حدسه يدفعه إلى كشف الأشياء المشتبه بها والشخص الذي شجعه بالأكثر على ذلك كان " مول Mohl " أمين سر الجمعية الفرنسية الآسيوية وقتئذ على القيام بنفسه بعمليات الحفر والتنقيب، وبالفعل باشر العمل بنفسه بداية وعلى نفقته الخاصة إلى درجة أنه صرف كل ما يملك في جيبه ولكن لسوء الحظ عمله هذا لم يأت بنتائج إيجابية ومشجعة. لذلك ترك الموقع إلى مكان آخر يبعد قرابة ١١ ميلا عن نينوى يسمى " خورسباد " وكان ذلك في عام ١٨٤٣ وهنا أصابه الحظ حيث اكتشف جدران القصر الملكي الأشوري ومنذ ذلك الحين ولد ما يسمى بـ " علم الأشوريات Assyriology " وموقع خورسباد صار واضحا بأن وضع فرنسي آخر يسمى "فلاندن Flandin" إذ جاء بمجموعة من اللوحات تحت عنوان "نصب نينوى" على غرار حملة نابليون بونابرت إلى مصر.

وبعد هذا الاكتشاف الهام، عاد إلى فرنسا حيث أنهمك في طبع نصب نينوى في خمس مجلدات. وعندما اندلعت الثورة الفرنسية في عام ١٨٤٨ والتي أطاحت بعرش الملك (لويس فيليب) وأعلنت النظام الجمهوري قد أدى إلى نقل بوتا إلى وظائف غير مهمة لأنه كان من أنصار النظام الملكي.

في هذه الأثناء، كان المسئولون البريطانيون قلقين ومشغوفين ولهم الرغبة بدخول حقل التنقيبات.إذ اتفقوا مع الفرنسيين الذين تخلوا عن الموقع بغياب (بوتا) كي يباشروا العمل مع احتفاظ قسما منها للفرنسيين وليس هنا من هو أكثر جدارة للقيام بهذه المهمة من "لايارد - Sir A.H.Layard الذي استطاع أن يدرك نوعا ما قراءة الكتابة الإسفينية / المسمارية. وقد قام ببعض الحفريات في المرحلة الأولى وبدون موافقة السلطات المحلية ولكن بعد مدة وجيزة استطاع الحصول على موافقة شرعية.

بدأ لايارد بالحفريات لأول مرة في موقع مدينة كالح Calah احدى العواصم الأشورية وذلك في ٩ من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٤٨ وكان النجاح حليفه إذ كتب مباشرة لكانينغ Sir Stratford Canning مخبرا إياه بالنتائج المرضية.

مكانة هرمز رسام التاريخية

خلال الحملة الثانية، غـادر لايارد الموصل في ٢٩ حزيران عام ١٨٤٧ إلى استنبول ومن ثم إلى لندن مصطحـبا معه السـيد رسام، ومن جراء العـمل الشاق لمدة سنتين بين الأطلال الأشورية بوسعه وقتها الافتخار باكتشافه مدينة "كالح / نمرود " العاصمة القديمة وكذلك مدينة نينوى كما اكـتشف عددا من القصور الملكية الأشورية الأخرى والتـوصل إلى معرفة أسماء الملوك الأشوريين عـلى سبيل الذكر " آشور ناصر بال، سرغـون، شلمناصر، تغلات بلاصر، أداد نيراري، سنحريب وأسرحدون.

وعندما غادر لايارد للمرة الثانية ميـزوبوتاميا "بلاد الرافدين تاركا المشروع تحت إشراف ورعاية مساعـده "هرمز رسام" ابن المنطقة، ولما كان هذا مولعـا بتاريخ أجداده لم يستطع أن يضبط نفـسه إلا أن يستأنف الحـفريات والتنقيـبات ليس في القسم المخـصص للبريطانيين فحسب، بل وتعـدى إلى القسم المحتفظ به للـفرنسيين، وهكذا أصابه الحظ باكـتشاف هام جدا إلا وهو قصر الملك آشور بانيبال والمكتبة الملكية الأشورية.

مكتبة الملك آشور بانيبال

احتوت مكتبة الملك آشور بانيـبال على قرابة ٢٦٠٠٠ لوحة مخطوطة، وعلى الرغم من احتوائهـا على لوحات مكررة أو مما أصابها العـطب، لكنها احتوت على لوحـات تاريخية قيمة جدا التي غطت حوالي ١٢٠٠ موضوع وفي هذا الصدد يقول برنار ناب / A. Ber-nard Knapp حيث اقترح بأن حوليات ملوك الأشوريين منذ بداية ١٣٠٠ ق. م. وجب اعتبارها أولى الـوثائق التاريخية المصورة في تاريخ البشـرية بدون منازع. أما العالم الألماني كارل بيزولد Carl Bezoldقد صنفها في خمس مجلدات محفوظة في المتحف البريطاني بلندن وهي على النحو التالي:

- التاريخ الأدبي
- مكتبة الملك الخاصة
- مكتبة المعبد

- المراسلات الملكية الرسمية

- العقود والمواثيق

ومن المحتمل أن عددها يربو على ٢٦٠٠٠ لوحة، لأنه من المؤكد أن لايارد لم يكن يعلم شيئا عن هذه اللوحات في البداية معتبرا إياها لأول وهلة مجرد قطع فخارية للزينة وبدون أهمية تذكر حيث قد ضاع أو تلف منها الكثير أثناء التنقيب.

كما أوردنا في المقدمة بظهور كتاب جديد في الأسواق تحت عنوان " الاكتشافات العشر التي أعادت كتابة التاريخ " للأستاذ باترك هانت ومن المواضيع التي أثارها بأن الجنائن المعلقة لم تكن في بابل بل في نينوى وبالطبع أن هذه الألواح ما زالت قيد الدرس ومن المؤكد ستكون هناك كثيرا من المفاجئات في المستقبل القريب ونحن منتظرون بفارغ الصبر.

كانت هناك خطة حكومية لإحياء مكتبة آشور بانيبال يوما وفي موقعها بالذات أي في الموصل نينوى لتمارس دورها القديم كمنارة للحضارة وذلك بالتعاون مع الدكتور جون كيرتس رئيس قسم الشرق الأدنى بالمتحف البريطاني ولكن تم إجهاض المشروع من قبل الصهيونية وحلفائها الغربيين والعرب نتيجة غزو العراق في عام ٢٠٠٣ حيث ليس للمشروع أي حسبان اليوم للأسف، بل والأكثر من ذلك إذ رغم التحذيرات ومن قبل أساتذة أميركيين بالذات وعلى سبيل الذكر "ماغوير غيبسون" McGuire Gibson للمعهد الشرقي في شيكاغو العمل للحفاظ على تراث بلاد الرافدين الغنية والتي لا مثيل لها في العالم أجمع أن لا تمس بسوء، ولكن قوات الغزو كل ذلك لم يهمهم بقدر الحفاظ على وزارة النفط حيث جرى النهب والسلب والخراب إلى درجة أن قذيفة أحدثت فجوة في مقدمة بناء المتحف العراقي في بغداد نفسه الذي يمثل قصر الملك الأشوري سارغون.

وتحت إشراف وتأثير الصهيونية التي ديدنها الأوحد تشويه التاريخ في بلاد الرافدين وخاصة الأشوري منه. ولكن اليوم بشرى سارة نزفها خاصة إلى بلاد الهلال الخصيب عامة أن اليوم هناك لنا أكثر من أستاذ أجنبي واحد حيث بوسعهم ليس كشف الحقائق عن الحضارة بدون تشويه فحسب بل الدفاع ودحض أولئك الذين يشوهون تاريخنا ومنهم "

سيمو باربولا / Parpola Simoالفنلندي(الرابط الملحق للأستاذ بربولا في حديث عن شعبنا الأشوري) إلى جانب هناك في حقل الأشوريات طلاب آشوريون الذين سيكون بوسعهم المساهمة أيضا في كشف تاريخنا الأشوري الناصع للعالم أجمع بدون تشويه أو تزييف.

كان آشور بانيبال منذ تعيينه وليًا للعهد يقاسم والده السلطة، ولما توفي والده في «أرخ شمنا» في عام ٦٦٩ق.م وهو في طريقه إلى مصر، اعتلى آشور بانيبال العرش وأطاعه أخوه الأكبر، ووجد آشور بانيبال نفسه أمام وضع عسكري معقد، إلا أنه لم يتردد في إصدار الأمر إلى قائد جيش والده شاشا - نبو - شويا بالاستمرار في السير إلى مصر لقمع تمرد حكامها، فتقدم هذا إلى الدلتا، وهزم ملكها طهرقا ومن معه من الأمراء المصريين، واستولى على ممفيس (منف / منفيس) ثم طارد طهرقا حتى الصعيد، فاستولى على طيبة. وبذلك خضعت مصر جميعها للحكم الأشوري. وليضمن الأشوريون سيطرتهم على مصر أعادوا الأمراء المبعدين إلى مناصبهم، فنصبوا الأمير نيخو (نخاو الأول) في مدينة سايس.

ولكن ما أن عادت الحملة إلى بلادها حتى تمرد المصريون من جديد، فهاجموا الحاميات الأشورية التي قضت على التمرد وقبضت على زعمائه واقتادتهم إلى نينوى[ر]. وبعد وفاة طهرقا تسلم الحكم ابن اخيه تانُتمون (تَنتأَ مان) الذي ثار على الأشوريين، واحتل منف، لكنه سرعان ما انهزم أمامهم، واسترد الأشوريون السيطرة على الدلتا حتى عام ٦٥٥ق.م. وحدث في أثناء انشغال الأشوريين بقمع الثورات في مصر أن احتل ملك المانيين أخشيري قلاعًا آشورية، وهدد حدود آشور الشرقية. فسارع آشور بانيبال إلى إرسال كبير ندمائه «نبوشر أوحُر» على رأس حملة لقمع التمرد، وانتهى ذلك التمرد بقيام ثورة على أخشيري أودت بحياته وخلفه ولي عهده على الحكم، واعترف بسلطة الأشوريين، ودفع الجزية لهم.

وكان آشور بانيبال منذ اعتلائه العرش مطمئنًا إلى أن أورتاكي ملك عيلام[ر] سوف يحافظ على علاقات جيدة معه كالسابق. ولتمتين عرى تلك الصداقة استغل آشور بانيبال فرصة مجاعة حلّت بعيلام، فزوّدها بالمؤن وأذِن للعيلاميين بدخول أملاكه. إلا أنه بعد وفاة

أورتاكي عام ٦٦٨ق.م حكم في سوسة الملك تمبت خمبان - أنشوشينا الذي كان يحقد على الأشوريين ويرفض صداقتهم. وتحقيقًا لأهدافه، أيد عصيان قبائل الجمبولو الآرامية والعربية في «نُفّر» وغيرها من مدن الجنوب فتصدى الأشوريون للفتنة بعنف وقضوا عليها. وزحف آشور بانيبال بعد ذلك على رأس قواته إلى سوسة، ودخلها فاتحًا عام ٦٦٣ ق.م.

أما في بابل التي كان شمش - شوم - أوكين حاكمًا عليها، فقد ظن هو الآخر أن الفرصة مواتية للتمرد على أخيه، فشق عصا الطاعة في أيار - حزيران من عام ٦٥٢ق.م. واتصل بأمراء مصر ورؤساء القبائل العربية والإمارات الآرامية وإمارات بلاد البحر (الخليج العربي) في جنوبي العراق. وكان أول من استجاب لدعوة شمش - شوم - أوكين بنو بعل شوماني من بلاد البحر والعيلاميون فجرد آشور بانيبال حملة تأديبية على بابل، وحاصر أخاه فيها، وفتحها عنوة، ودمرها، واحترق شمش - شوم - أوكين وسط لهب قصره. ثم زحف آشور نحو الجنوب للانتقام من القبائل الآرامية والعربية التي ساعدت الثورة فشتت شملها، ثم هاجم عيلام. وفتح عاصمتها سوسة، وخرّبها ونبش قبور ملوكها عام ٦٣٩ق.م.

لم يبق في الساحة من أعداء آشور بانيبال إلا القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام والبادية الشامية، وكانت تسبب المتاعب للحاميات الأشورية، فكلف آشور بانيبال حاكم دمشق الأشوري تأديبهم. فجهز لقمعهم كتائب أغارت على منازلهم في البوادي وأحرقتها، ونهبت قطعان إبلهم حتى لا يستخدموها مطايا، وهكذا دان المشرق القديم كله للحكم الأشوري. ومن يقرأ حوليات هذا الملك يَرَ أنه قضى نحو ثلاثين عاما في الغزو، وإن قال عنه الإغريق إنه محب للهو والمجون. ويكتنف الغموض السنوات الأخيرة من حكمه حين مال إلى الراحة بعد أن أنهكت الحروب مملكته، وخلفه على العرش بعد وفاته ابنه آشور - إتيل - إيلاني ثم ابنه الثاني سين - شار - إشكون، فلم يتمكنا من الحفاظ على إرثهما، وتوالت المحن على مملكة آشور إلى أن قضى عليها تحالف البابليين والميديين والسكيثيين سنة ٦١٢ق.م.

كان آشور بانيبال ملكًا حكيمًا ومحاربًا محنكًا وعالمًا مولعًا بالآداب، وقد قال: «لقد

تعلمت الحكمة عن الحكيم (آدابا)، واقتبست أسرارها، وأسرار فن الكتابة على الرقم. وخصتني السماء بالحكمة، وناقشت في مجالس العلماء، وشاركت في معرفة الفأل من الكبد، وأستطيع تفسير جميع الألغاز. وقد قرأت أصعب الرقم السومرية والأكدية، وتمعنت في النقوش الحجرية قبل الطوفان».

وحتى لو كان هذا القول تبجحًا، فإن ما يشفع له جمعه عشرات الألوف من الرقم في مكتبة قصره بنينوى. وقد عثر في قصره المحترق على أكثر من خمسة وعشرين ألف رقيم وكسرة رقيم سطرت عليها أخبار الحروب والرسائل والمعاهدات والوثائق الاقتصادية والإدارية التي تخص عصره، والأشعار والآداب والقصص والأساطير والروايات والحكمة وغيرها.

ومع أن آشور بانيبال لم يضاه أسلافه في حبه للبناء، فإنه كان محبًا للفن، بني قصرًا في نينوى زينه بأحسن اللوحات المنقوشة التي صورت حروبه وملذاته وهواياته بدقة وإتقان ميزاها مما عُرف في العصور السابقة.

مكتبة آشوربانيبال

لم يكن آشور بانيبال صيادا فحسب بل كان أيضًا محاربًا غزا العديد من البلدان بما فيها مصر.

رغم كل هذا كان يفتخر كثيرا بقدرته على الكتابة والقراءة في عصر كان تعلم الكتابة المسمارية فيه حكرا على النساخ.

وكان يملك مكتبة كبيرة جدا من الألواح، كان يجمعها له خدمه من جميع أنحاء البلاد، خاصة في بابل.

هذا اللوح هو النسخة البابلية لقصة الطوفان، الذي يقارب قصة طوفان نوح، كما تحكى في سفر التكوين في العهد القديم.

حينما احترق قصر آشور بانيبال في عصر سقوط الإمبراطورية عام ٦١٢ قبل الميلاد، انهارت المكتبة فوق الغرفة السفلية، وأدى هذا السقوط إلى تحطم هذا اللوح واحتراقه.

ولكن كمية هائلة من الألواح نجت من الحريق، وهي معروضة الآن في المتحف البريطاني.

الأشوريون والعقدة البابلية

وجد نظام دولة المدينةcity state في وسط وجنوب العراق بين (٢٩٠٠ - ٢٤٠٠) ق.م. وقد سمي بعصر فجر السلالات، حيث كان فيه البشر والماشية ملكًا للإلهة. سمى السومريون يسمون حاكم دولة المدينة Ensi أما الاكاديون فكانوا يسمونه ايشاكو e_aku.

- الاكديون انحدروا من الشمال وتحديداً من منطقة جبل سنجار غرب نينوى. سرجون الاكدي (٢٣٧١ - ٢٣١٦) ق.م مؤسس هذه الدولة. وحدّ البلاد وقضى على نظام دولة المدينة. اتبع سياسة تدمير أسوار المدن من اجل القضاء على مراكز تجمع المناوئين لسلطته. بسط نفوذه على كل بلاد سومر حتى انه يذكر في نص مسماري "غسل سلاحه في مياه البحر السفلي" أي مياه الخليج العربي. اتخذ مدينة أكد عاصمة له والتي ما يزال موقعها غير معروف لحد الآن. بنى في عاصمته الجديدة معبداً للإلهة عشتار التي يدعي بأنها هي التي منحته الحكم. تذكر النصوص المسمارية بأنه استولى في الغرب على مدينة ايتو (هيت) وماري وغابات الأرز (جبال امانوس) وجبال الفضة (جبال طوروس) ومدينة ابلا في شمال سورية. وهناك نص مسماري عثر عليه في تل العمارنة في مصر عنوانه (ملك المعركة) يذكر بأن سرجون الاكدي وصل إلى مدينة بورش خندا في أواسط أسيا الصغرى لنصرة جماعة من التجار الأشوريين الذين أصابهم الظلم على يد أحد الحكام هناك. انتهى العهد الاكدي في العراق بموت شار - كالي شرّى ٢٢٣٠ ق.م.

- احتل الكوتيون وادي الرافدين مدة قرن من الزمن تقريبًا (٢٢١١ - ٢١٢٠) ق.م وكانوا شعبًا بربريًا قدم من جبال زاكروس ودمر كل شيء حضاري في العراق خلال فترة احتلاله له.

- سلالة اور الثالثة مؤسسها اورنمو دامت هي الأخرى حوالي قرن من الزمن (٢١١٣ -٢٠٠٦ (ق.م سقطت على يد العيلاميين، حيث احرقوا مدينة اور الجميلة ودمروها واخذوا الملك آبي - سين أسيراً إلى عيلام. وبهذا انتهى آخر حكم سومري في البلاد وقد

تردد صدى الفاجعة التي حلت بأور والبلاد كلها في عمل أدبي سومري يعرف ب- (مرثية اور) التي تصف الخراب الكبير على يد العيلاميين. واليكم مقطعًا منها:

"ايه نانا، أن تلك المدينة قد حولت إلى رميم.... / في ابوابها العالية، التي كانوا فيها يتنزهون، رميت جثث الموتى / وفي شوارعها المشجرة، حيث كانت تنصب الولائم، استلقوا متناثرين / وفي كل طرقاتها، التي كانوا فيها يتنزهون، سجت جثث الموتى / وفي ميادينها، حيث كانت تقام الاحتفالات / استلقى البشر بالاكوام....".

- قبائل مارتو أو آمورو (الأموريين): كانوا سببًا مباشراً في سقوط سلالة اور الثالثة السومرية، لان هجماتهم المتكررة أضعفت الدولة كثيراً واضطر ملكها شو - سن (٢٠٣٨- ٢٠٣٠) إلى إقامة حصن دفاعي في مكان بين ماري واور لاتقاء شر غزواتهم. والمعروف عن هذه القبائل أنهم كانوا يتنقلون في بوادي الشام لذلك كانوا أدنى تحضراً من سكان المدن. وقد وصلنا نصّ سومري يصفهم حسب تعبيره: " كانوا سكان خيام لا يعرفون بناء البيوت وكانوا يأكلون اللحم نيًا ولا يدفنون موتاهم...".

أن هذه النظرة السومرية عن البدو الأموريين لا ينبغي تفسيرها كما حاول بعض الباحثين بأنها تنم عن تعصب عنصري، وإنما هي تصور واقع الحياة لهذه القبائل البدوية التي كانت أقل تحضراً من البلاد التي جاءوا للاستيطان فيها. وفي الكتاب المقدس وعلى لسان النبي اشعيا ورد حول تأسيس بابل: " ها هي ذي أرض الكلدانيين الشعب الذي لم يكن فأسسها آشور لساكني القفار...."

- سلالة بابل الأولى (١٨٩٤-١٥٩٥) ق.م

يعرف هذا العصر تاريخيا بالعصر البابلي القديم, لعدم ذكر وجود بابل بأي شكل قبل هذه الفترة (ويمكن الافتراض أن المدينة كانت عندئذ موقعًا غير مهم نسبيًا). لقد اختار احد شيوخ القبائل الأمورية الزاحفة إلى وسط العراق واسمه (سومو - ابوم) منطقة أو قرية بابل الواقعة على الفرات والمفتوحة على الصحراء الغربية موطنًا لتلك القبائل واتخذها مقراً له اثناء الصراع الدائر بين سلالتي آيسن و لارسا ذلك في السنة الأولى من حكم ملك لارسا سومو - آيل أي في سنة ١٨٩٤ ق.م. واسمها القديم هو ، وتعني باب الرب. وبنفس المعنى ورد اسم مدينة كربلاء بصيغة.

استطاع هذا الشيخ الاستقلال في بابل وصار يحصنها , فبنى سوراً حولها وقام ببعض الأعمار وأعمال الزراعة في محيطها. وخلفه أربعة ملوك قبل حمورابي اهتموا جميعًا بتحصين المدينة وإنشاء المعابد وحفر قنوات الارواء وتوسيع نفوذهم إلى بعض المدن المجاورة. وهم سومو لايل وسابيئوم وأبل - سين وآخرهم سين موباليت والد الملك البابلي الشهير حمورابي.

وفي شمال بلاد الرافدين ظهر مركز سياسي قوي في ذلك الوقت, أي مع تسلم الملك شمشي أدد الأول (١٨١٤-١٧٨٢) السلطة في مدينة آشور. وكان لهذا الموقع (مدينة آشور) في الماضي تاريخ طويل. ومنذ الألف الثالث ق.م في العصر الاكدي كما مرّ لعب دوراً مهمًا في الحركة التجارية لاسيما تجارة التصدير. وكانت مملكة آشور في بداية الألف الثاني أيضا تمتلك محطات تجارية وصلت حتى الآناضول البعيدة. وحسب مدونات اللغة الأشورية القديمة المكتشفة في (قانيش القديمة). فقد حمل الأشوريون بالدرجة الأولى التصدير الضروري في إنتاج النحاس المحبب إلى آسيا الصغرى، بالإضافة إلى مواد أخرى. وحصلوا مقابل ذلك على الفضة والصفر الذي كانوا ينقلونه على ظهور الحمير عبر أراض جبلية وعرة إلى آشور. ونشاهد هنا في آشور ومنذ هذا الوقت المبكر, وحسب واحدة من الأخبار بأن الملك الأشوري ايلوشوما وصل إلى منطقة بابل في حوالي (١٩٢٠) ق.م.

دولة حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠) ق.م:

في السنوات الأولى من حكمه لم يكن يملك حرية الحركة كما كان يريد حيث أن مجال حكمه ونفوذه لم يتعدى دائرة محيطها ٨٠ كم حول بابل طيلة فترة الملوك الأقوياء وذوي التجربة مثل شمشي - أدد في آشور, وريم - سين في مدينة لارسا. اتبع حمورابي سياسة التأرجح واستغلال الفرص بين الاقوياء كونه دولة صغيرة طوال فترة حكمه الأولى, ويستدل من حقيقة الوثائق المنسوبة إلى السنة العاشرة من حكمه أن القسَمْ لم يكن عند حمورابي فقط وإنما تم تأديته كذلك عند شمشي - ادد في اشور "ما يدل على أن حمورابي كان يخضع إلى السيادة الأعلى لملك اشور".

كما أن حملة حمورابي في السنة الثامنة من حكمه ضد أموتبال عبر مملكة لارسا والتي كان يحكمها ريم - سين: " لا يعتقد أن حمورابي كان يستطيع القيام بهذه الحملة دون حماية ظهره على الاقل بل وحتى دون مساعدة آشور"، ولكن حمورابي سرعان ما فقد الحماية الأشورية بعد السنة العاشرة من حكمه أي بعد وفاة شمشي - ادد فصار ينتهج سياسة التعايش السلمي مع جيرانه في لارسا وآشنونا واشور نفسها وحتى ماري.

إلا أننا نشاهده بعد انتظار طويل قد دخل في حرب ضروس مع آشور في العقد الأخير من حكمه ولكن ليس من الواضح إلى أي مدى حقق الآنتصار ضد آشور. والي أي حد تم الحاق مركز بلاد آشور بدولة حمورابي، " أما عن تسمية ونينوى على أنها من المدن الواقعة تحت سيطرة حمورابي كما ورد في العمود الرابع من المقدمة، الاسطر (٥٥-٦٣) لقوانين مسلته والمتكونة من (٢٨٢) مادة... عدا المقدمة والخاتمة. فيبقى دليلاً غير مؤكد على خضوعها". وعندما لقب نفسه ب- "الملك العظيم، ملك بابل، ملك بلاد الأموريين كلها، ملك سومر وأكد, ملك الجهات الأربع" لم يذكر كونه ملك آشور!

وقد وصف جورج رو حال نهضة بابل العظيمة هذه والتحلل السريع لمملكة حمورابي كما يلي: (كانت في العراق خمس دويلات ذات ماضٍ عريق في الاستقلال... تمت عملية مركزتها مع بابل بالإكراه... وكانت جهود حورابي بجعل بابل المركز السياسي والاقتصادي والروحي للبلد، مرتبطة بالخير الذي تجلبه العملية إلى البلاد... إلا أن نتائج العملية كان تحطيم المقاطعات بشكل أو بآخر وخلق حالة تذمر متزايدة في مدن سومر واشور المجيدة، حيث كانت ذكرى انجازات شمشي - ادد الكبيرة ما تزال حية في الاذهان... لذلك لا نستغرب أن نشاهد اندلاع الآنفجارات والعصيان بسرعة مع موت حمورابي والتي أدت إلى التحلل السريع للمملكة... ومن الطريف أن نذكر أن المجد والقوة التي استعادتها بابل بعد ذلك كانت من عمل اجانب آخرين هم الكاشيون "

وقد وصف جورج رو حال نهضة بابل العظيمة هذه والتحلل السريع لمملكة حمورابي كما يلي: (كانت في العراق خمس دويلات ذات ماضٍ عريق في الاستقلال... تمت عملية مركزتها مع بابل بالإكراه... وكانت جهود حورابي بجعل بابل المركز السياسي

والاقتصادي والروحي للبلد، مرتبطة بالخير الذي تجلبه العملية إلى البلاد... إلا أن نتائج العملية كان تحطيم المقاطعات بشكل أو بآخر وخلق حالة تذمر متزايدة في مدن سومر واشور المجيدة، حيث كانت ذكرى انجازات شمشي - ادد الكبيرة ما تزال حية في الاذهان... لذلك لا نستغرب أن نشاهد اندلاع الآنفجارات والعصيان بسرعة مع موت حمورابي والتي أدت إلى التحلل السريع للمملكة... ومن الطريف أن نذكر أن المجد والقوة التي استعادتها بابل بعد ذلك كانت من عمل اجانب آخرين هم الكاشيون ".

الكاشيون: اقوام سكنت جبال زاكروس قبل غزوهم لبلاد الرافدين واسمهم مشتق من اسم الههم القومي "كشو". أن فترة الخمسة قرون بين (1100 - 1600)ق.م التي كانت بابل تحت سيطرتهم تعتبر ذات أهمية كبيرة من حيث التطورات الدولية والعلاقات السياسية في منطقة الشرق الأدنى. نتيجة لتعاصر ثلاثة قوى في المنطقة: الحثيون في آسيا الصغرى. والكاشيون في العراق وقيام مملكة الجديدة في مصر. بالإضافة إلى الأشوريين في الشمال.

لقد عرف هذا العصر بعصر العلاقات الدبلوماسية والسياسية وتبادل السفراء بين الملوك والأمراء لتلك الدول. واستفاد الكاشيون كثيراً من توازن القوى في هذه الفترة من الزمن. حيث تكشف لنا نصوص تل العمارنة المكتشفة عام ١٨٨٧ في أنقاض قصر الملك اخناتون والتي يزيد عددها عن (٣٦٠) سالة وتعود إلى زمن امنوفس الثالث واخناتون ابنه وهي مكتوبة بالخط المسماري واللغة الاكدية. وقد أرسلت إلى هذين الملكين من قبل الملوك الكاشيين والميتانيين والأشوريين وعدد من حكام المقاطعات في سوريا وفلسطين...الخ

ونقرأ في رسالة من الملك الكاشي برنابورياش الثاني (١٣٨٠ - ١٣٥٠) إلى امنوفس الرابع (نو - خفيرو - رع) ملك مصر. كيف يمتعظ فيها الكاشي من الاستقبال المصري للوفد الأشوري بصفة رسمية ويدعي تبعيتهم إليه ".... أما ما يخص الأشوريين من أتباعي، أفلمْ أخبرك برسالتي في شأنهم، فلمَ دخلوا بلادك؟. وأنت ستعمل على إحباط سعايتهم وجهودهم. وفي الختام لقد أرسلت إليك هدية ثلاثة منات من حجر اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات".

وقد بنى كوريكالزو الأول مدينة جديدة لتكون عاصمة له بدلاً من بابل وهي مدينة دور - كوريكالزو (عكركوف) إلى الغرب من بغداد ٢٠كم. والتي اقتحمها الملك الأشوري توكلتي - ننورتا الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨) ق.م محرراً بلاد بابل من الكاشيين وضمها إلى الحكم الأشوري المباشرإذ وردنا في كتابة له: ...."وفي غمار تلك المعركة أطبقت يدي على كاشتيلياش الملك الكاشي... وجلبته وهو مكبل وعار أمام الإله آشور وأخضعت بلاد سومر وأكد حتى ابعد حدودها لسلطتي فامتدت حدود ارضي إلى البحر الأسفل ذي الشمس المشرقة". [١٠]

- الأدوار التي مرت على بلاد آشور:

قد ينسب الأشوريين إلى اسم أول مركز حضاري كبير لهم (آشور). والذي تحول فيما بعد إلى عاصمة مهمة لدولتهم. وقد أطلق اسم آشور على الإله القومي للأشوريين أيضا. فلا يعرف على وجه التأكيد أيهما كان أصل الأخر، اسم المدينة أو اسم الإله.

لقد سكن الإنسان في بلاد آشور منذ أقدم العصور وحتى الآن، واتفق العلماء على تقسيم مراحل التاريخ الأشوري كما يلي:

١ - العصر الأشوري القديم (٢٠٠٠ - ١٥٠٠) ق.م

٢ _ العصر الأشوري الوسيط (١٥٠٠ - ٩١١) ق.م

٣ - العصر الأشوري الوسيط (٩١١ - ٦١٢) ق.م

تشير النصوص الأشورية المكتشفة في موقع (كول تبة) قانش قديمًا إلى وجود جماعات آشورية تعمل بالتجارة في هذه المنطقة منذ أواسط الألف الثالث ق.م. وان هذه المستوطنات التجارية الأشورية كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الإداري والقانوني ضمن إطار سيادة الحكام المحليين. وإنها ظلت تحتفظ بولائها لآشور إلام وتدين بديانتها وتتبع نظمها وتقاليدها وقوانينها وتعيش حياة آشورية بصورة عامة رغم بعدها الشاسع عن الوطن إلام. وكان يطلق لفظة كاروم (Karum) على كل مركز من تلك المراكز التجارية الأشورية والذي يعني (ميناء).

بدأت فترة النهوض القوية الأولى لآشور مع ظهور شمشي أدد الأول (١٨١٤ - ١٧٨٢) وتحديداً عندما بدأ هذا الملك بتوسيع رقعة بلاده بضم بمدينة ماري على الفرات ثم امتدت علاقاته إلى يمخد (حلب) وقرقميش (جرابلس) وقطنا. وفي الجهة الشرقية للملكة بسط نفوذه على القبائل الكوتية والتركية واللولبية ومع الجنوب أي مع حمورابي كانت له علاقات صداقة ومجاملة.

وخلال العصر الأشوري الوسيط والذي بدأ مع حكم بوزور - آشور الثالث (1521) ق.م تقلبت أوضاع بلاد آشور في هذه الحقبة الطويلة من تاريخها والتي استمرت زهاء ستة قرون.

فقد تمكن آشور اوبالط (١٣٦٥ - ١٣٣٠) من تحرير البلاد من النفوذ الميتاني في الأجزاء الشمالية منها. واعترفت مصر بسيادة قوة الدولة الأشورية وأقامت معها علاقات صداقة. أما الكاشيون فقد فشلوا في تاليب المصريين ضد الأشوريين كما فشلوا في السيطرة على بلاد آشور. لذلك اختاروا طريق السلم والصداقة وعقدوا معاهدة مع الملك الأشوري ختمت بزواج سياسي بين ابنة الملك الأشوري وابن الملك الكاشي. ولكن هذه الصداقة سرعان ما تعرضت إلى نقض من لدن البابليين فحدثت مؤامرة في البلاط الكاشي أبعد بموجبها صهر الملك الأشوري ونصب شخصاً آخر ملكاً مكانه مما جعل آشور اوبالط أن يتدخل ويعيد تنصيب حفيده من ابنته ملكاً على بابل. غير أن الاضطرابات بين الأشوريين والبابليين سرعان ما اندلعت مرة أخرى مع موت آشور اوبالط.

أصبحت البلاد الأشورية منذ هذا التاريخ مهددة بالإخطار من جهات مختلفة. فكان على الملوك المتعاقبين أن يعملوا على تثبيت سياسة حكيمة لدرء الأخطار عن دولتهم. وقد خلقت هذه الظروف الصعبة زعماء أقوياء وحكماء في خبرتهم الإدارية والعسكرية والدبلوماسية فأثبتوا للعالم كفائتهم في ذلك وأسسوا دولة منظمة قوية بسطت نفوذها على جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم.

من هنا صارت تواجه المختص في التاريخ الأشوري مشكلة متكررة وهي: أن الفترات التي كانت فيها دولة آشور قوية وملوكها من الشخصيات الرئيسية كانت تتناوب مع ظاهرة

كـون كل من الدولة والملوك قـد تضـاءل إلى عـدم الأهمـيـة والمقـدرة في المحـيط الدولي والداخلي. فـالسؤال الذي يطرح نفـسه هنا، هو: هل أن الملوك المقـتدرين هم الذين رفـعوا شأن آشور إلى القـوة والرفاهية بكفاءاتهم الـغريزية، أم أن تحسن الأوضاع الدولية بـالنسبة إلى الدولة الأشورية دفع ملوكها نحو الهدف والقوة العسكرية والاقتصادية؟

المؤرخ الشهـير هاري سـاكز يرى: (ان الحقـيقة تـقع بين هذين الرأيين المتطرفين. فليس هناك ملك مهـما كانت قـابلياته يمكن أن يرفع شأن آشـور بين فكيّ أوضاع دولية مـعادية. ولكن عندما تكون الأوضاع الدولية لصالح آشور فأن الملك المقتدر والعزوم فقط يتمكن أن يسـتفـيد اسـتفـادة قصـوى من ذلك). يسـتنتج من هذا أن مـعظم الملوك الأشوريين كـانوا مقتدرين يتحينون الفرص. ومن بين هؤلاء القادة العظام كان:

شيلمنصر الأول (١٢٧٤ - ١٢٤٥) ق.م الذي اشـتهر بفوتاحته الكبيـرة وقضائه على الاقوام الجـبلية شمـال شرق البـلاد الأشورية وبحملتـه على اورارطو (ارمينيـا) لأول مرة. والحاقـة دولة خانيكلبـات بالدولة الأشورية وتأسيـسه عاصـمة جديدة للـدولة وهي مدينة كالخو.

خلفـه ابـنه توكلتي ننورتـا الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨) ق.م سـار على نفس السـيـاسـة الخارجية الأشـورية حيث قام بفتوحات عـسكرية كبيرة في الغرب والشمـال. واتبع سياسة التهجـير السكاني. أما بالنسـبة إلى بابل فقام بهـجوم كاسح عليهـا واخضع الملك الكاشي ودخلت بابل لأول مرة تحت الحكم الأشوري المباشر. فكان ذلك السبب الأول والمباشر في تمازج الحـضارتين. وانتـقال عـبادة مـردوخ البـابلي إلى بلاد الأشوريين ودخـول اسمـه في تركيب كـثيـر من الأسمـاء الأشورية وكان ذلك مـؤشراً إلى مـيل الأشوريين للتـحرر من الإقليمـية والآنفتاح إلى بلاد بابل واقـتباس بعض مقومـاتها الحضارية. وفي الوقـت نفسه انتـقلت كثير من المظاهر الحـضارية الأشـورية إلى بلاد بابل. والسبب الرئيـسي وراء هذه الحملة الأشـورية واحتلال بابل كانت أطمـاع الحاكم العيلامي اونتش - كـال الذي خاض معركـة ضد البابليين وربحهـا وذلك قبل اضطرار الأشوريين للتحـرك صوب بابل وجلب ملكها كاشتيلياش أسيرا إلى نينوى.

وبعد مقتل الملك الأشوري هذا وانشغال الأشوريين بالاضطرابات الداخلية انتهز العيلامي شترُك – تاختني الفرصة وزحف بجيش كثير على بابل " واجتاح معظم جنوب العراق ونهبه بشكل لم يسبق له مثيل، فنقلت النصب المشهورة وأعمال النحت الفنية الرفيعة – مثل مسلة حمورابي ونرام سين ونصب مانشتوسو إلى سوسة".

وفي عام ١١١٥ ق.م اعتلى العرش الأشوري الملك تجلات بليزر الأول الذي استطاع أن يعيد البلاد الأشورية إلى قوتها السابقة وأكثر. حيث قضى على الأقوام التي عرفت بالمشكو في آسيا الصغرى وفي الشمال الغربي وصل الأشوريون إلى الساحل السوري. أما في الغرب فهاجم القبائل البدوية الرحل أخلامو.

أما سياسته تجاه بابل فليست واضحة تماما غير انه قام ببعض الغارات العسكرية التأديبية على حدود بابل.

- العصر الأشوري الحديث:

يمتد بين (٩١١ – ٦١٢) ق.م ثلاثمائة سنة غيرت وجه الشرق الأدنى بالكامل. حيث وصل الأشوريون خلالها إلى قمة مجدهم وازدهارهم وعنفوان قوتهم العسكرية. أن التعاظم الأشوري هذا واتساع نفوذهم لم يكن محض صدفة بل لابد من وجود أسباب وعوامل عدة وراء ذلك. ومن هذه العوامل ما هي داخلية وأخرى خارجية. ومنها ما يمكن معرفته أو استنتاجه من متابعة تطور الأحداث ومنها ما يبقى غامضًا.

لتحليل السياسة الأشورية في هذه المرحلة ذهب الباحثون منحيين مختلفين تمامًا.

– فهناك من الباحثين المحدثين من يعزي الانتصارات العسكرية الأشورية وتعاظم قوتهم العسكرية ومن ثم التجارية والإدارية والعلمية إلى الأساليب الهمجية البربرية التي اتصفت بها الحملات العسكرية والي تعطش وتلذذ الملوك الأشوريين العظام إلى القتل وسفك الدماء وتعذيب الأعداء ونهب خيرات الآخرين..الخ. وقد يبدو هذا التوجه صحيحًا لأول وهلة طبقًا إلى المصادر التي اعتمدها هؤلاء الباحثون.

ولكن بمجرد إجراء دراسة تحليلية وعلمية للتاريخ الأشوري السياسي والحضاري

للقرون الثلاثة الأخيرة. مع الأخذ بنظر الاعتبار الظروف والمخاطر التي كانت تمر بها الدولة الأشورية سوف يتبين بوضوح خطأ هذا الرأي وعدم مطابقته لواقع السياسة الأشورية ومتطلبات الحالة آنذاك. فالمصدر الرئيسي لمثل هكذا باحثين هو اسفار العهد القديم (التوراة) بالإضافة إلى النصوص المسمارية التي دونها الملوك الأشوريون انفسهم عن أخبار حملاتهم العسكرية المتلاحقة إلى الشمال والغرب والشرق من البلاد الأشورية. تلك الكتابات التي عرفت بالحوليات الملكية أو النصوص التاريخية الملكية. إضافة إلى المشاهد المنحوتة التي صورها الفنانون الأشوريون وحسب رغبات الملك على ألواح الرخام والتي كانت تزين جدران القصور الرئاسية.

أما بالنسبة للتوراة نقول بما انه كتب في القرنين السادس والخامس ق.م أثناء السبي البابلي لليهود أي بعد زوال الدولة الأشورية وبعد قضاء الدولة الكلدية (البابلية الحديثة) على مملكة يهوذا وسبي سكانها إلى بابل فمن الطبيعي أن يكون مثل هؤلاء الكتّاب من أشد الحاقدين على الأشوريين وبابليين. وجاءت كتاباتهم تظهر هذا الكره والحقد الشديد للأشوريين بصورة خاصة وللعالم غير اليهودي بصورة عامة. هكذا فقد أظهر التوراة الأشوريين بمظهر الطغاة والقتلة وخير صفاتهم الشراسة وسفك الدماء دون مبرر. وكأن ملوك إسرائيل ويهوذا ومصر، ومن قبلهم ومن بعدهم، كانوا حمامات السلام.

أما عن النصوص الملكية المكتوبة فيمكن القول أن الملوك الأشوريين كأسلافهم الملوك العراقيين الذين سبقوهم كانوا يدونون أخبارهم ومنجزاتهم العسكرية والعمرانية على ألواح خاصة لوضعها في المعابد والقصور وأمام تمثال الإله القومي للبلد أو المدينة لتكون بمثابة تقرير ملكي رسمي مقدم إلى ذلك الإله للاطلاع على أعمال وكيله وقائد بلاده الملك المأمور والمفوض من قبل هذا الإله للقيام بحماية البلاد والعباد. ومن الطبيعي أن تكون لغة أو أسلوب المبالغة هو السائد في هذه النصوص.

ومن هنا تظهر الإنجازات والانتصارات فقط، غافلة الإخفاقات والخسائر في معظم الأحيان. ومن الطبيعي أيضا إظهار قوة الملك وقسوته وقدرته على البطش بالأعداء وقمع الثورات. لأنها أي هذه الألواح كانت الوسيلة الوحيدة المتيسرة لبث الدعاية والإعلام

للملك ودولته ومقدار سلطته. هكذا فأن ما ذهب إليه المؤرخون المحدثون لا يعطي الصورة الحقيقية والواقعية للسياسة الأشورية.

ولكن يجب أن لا يفهم من هذا أن الأشوريين لم يكونوا شجعانا وأقوياء وأشداء على الأعداء وقساة مع المتمردين والعصاة وكل من كان يحاول النيل من أمن بلادهم. وفي هذا الصدد يورد توينبي ترجمة نص مسماري آشوري يصف روحية الجيش الأشوري والانضباط العسكري العالي فيه: " لن يتعب أي منهم أو يتعثر، ولن يتغلب النعاس على أي منهم أو ينام، كما لن يرتخي حزام خاصرة أي منهم أو ينقطع شريط حذاءه ".

أن السياسة التي انتهجها ملوك وقادة آشور كانت هي السياسة الناجحة والوحيدة آنذاك لضمان أمن وسيادة الدولة الأشورية وحماية حضارتها من الدمار. كما أن الأشوريين لم يلجئوا إلى القوة إلا كحلّ أخير ونهائي لحل المشاكل لان سياستهم الخارجية كانت قد اتصفت بالاتزان والتعقل مقارنة مع سياسة الأقوام التي عاصرتهم وحتى تلك التي جاءت من بعدهم، وان حروبهم رغم قساوتها لم تختلف عن الحروب العيلامية والحثية والمصرية وحتى الحروب الفارسية واليونانية والرومانية التي جاءت بعد الأشوريين بكثير.

كما ذكرنا وكما هو معلوم كانت ثلاثة قوى كبرى تتحكم بمصير بلدان الشرق الأدنى القديم قبيل نهاية الألف الثاني قبل الميلاد: وهي الإمبراطورية الحثية في آسيا الصغرى وشمال سوريا. والسلالة الكاشية في بابل والإمبراطورية المصرية بالإضافة إلى دولة آشور المتجهة نحو النمو والازدهار. وقد حصلت تغيرات عظيمة مع بداية الألف الأول ق.م حيث زالت الإمبراطورية الحثية. وانكمشت مصر نتيجة الخلافات الداخلية وإنهاك قوتها في الصراع مع الحثيين، ولكنها ظلت تحرض الدويلات السورية ومملكة يهوذا واسرائيل وتمدها بالعون للتمرد ضد النفوذ الأشوري الذي كان ينافسها في مصالحها التجارية على ساحل المتوسط. وعندما اصطدم الأشوريون معهم أي مع المصريين نتيجة هذا الموقف، ما لبثت مصر أن فتحت أبوابها أمام الجيوش الأشورية وأصبحت تحت الحكم الأشوري المباشر.

أما إلى الجنوب أي في بلاد بابل فبعد زوال السلالة الكاشية في القرن الثاني عشر ق.م

تعاقب على حكم البلاد عدد من السلالات المحلية والغريبة الضعيفة التي لم تقو على مجابهة أعدائها وأعداء الأشوريين، مما جعل الأشوريين في وضع صعب! عليهم الاختيار بين الزحف وضم بابل إلى الحكم الأشوري المباشر لدرء الخطر القادم من الجنوب (بلاد البحر) أو تقديم الدعم والإسناد إلى تلك السلالات البابلية الضعيفة وغير الملتزمة مع الأشوريين وسياستهم الحازمة. من هنا كانت مشكلة الأشوريين مع بابل أي أنها هي العقدة البابلية التي استمرت طوال فترة العصر الأشوري الحديث وحتى بعد سقوط آشور.

وفي هذه المرحلة المهمة من عمر الدولة الأشورية، كان على كل ملك آشوري يتقلد زمام الأمور أن يثبت سلطته وكيان دولته المترامية الأطراف ويقوم بحملات عسكرية دون توقف والي الجهات المختلفة لمجابهة الإخطار وبسط نفوذ الدولة على الأقاليم المجاورة. هكذا تحقق الانتصار تلو الآخر وتأسست أعظم إمبراطورية. في تاريخ العراق القديم. وكان السبيل الأول إلى ذلك قوة وعزم وثبات الفرد الأشوري وصلابته بالاعتماد على النظم الإدارية الكفوءة والدقيقة التي اتبعتها الحكومات المركزية في إدارة البلدان المفتوحة حديثًا والأقاليم التابعة. وعلى قدرة وكفاءة وقوة الجيش الأشوري وكفاءة عدده وحسن تنظيمه وتدريبه وقابليته للدفاع والهجوم وفي مختلف البيئات والظروف التي تميزت بها الجبهات الأشورية المختلفة.

وبناء على نتائج هذا التوسع الأشوري الكبير تم ضمان سلامة الطرق التجارية وتطويرها مما سبب تدفق البضائع والأموال إلى المدن الأشورية الرئيسية. وهذا بدوره سبب في ازدهار العمران والفن والعلوم والحياة الاجتماعية بصورة عامة.

كما أن سياسة التهجير التي اتبعها معظم الملوك الأشوريين في هذه المرحلة كان لها الأثر الكبير في امتزاج الحضارات والثقافات ضمن الشرق الأدنى على الأقل. ومن ثم انتقال مظاهر الحضارة الأشورية إلى بلاد اليونان وجزر البحر المتوسط وبحر ايجة أثر اتصال الأشوريين عسكريًا بساحل البحر المتوسط وسواحل آسيا الصغرى واحتكاكهم بأقوام الحوض المتوسطي عمومًا.

- أدد - نيراري الثاني (٩١١ - ٨٩١) ق.م

أول ملك من العصر الأشوري الحديث الذي قام بحملة عسكرية على بلاد بابل سالكًا

الطريق الشرقي، وعقد معاهدة معها لتثبيت الحدود بين الدولتين ولهذه المعاهدة أهمية خاصة لأنها احتوت على موجز لتاريخ المنازعات بين الطرفين.

- توكلتي نينورتا الثاني (٨٩٠ - ٨٨٤) ق.م

توجه بحملته الثالثة إلى بلاد بابل ووصل إلى دور - كاريكالزو وسبار مما يدل على ضعف السلالة البابلية المحلية. وفي طريق عودته سار مع الفرات ومنه إلى الخابور حتى وصل نصيبين وتوغل في أسيا الصغرى استظهاراً للقوة.

- آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) ق.م

الذي يصفه جورج رو: "وقد جمع كل مميزات ومساوئ الملوك العظام الذين سبقوه حيث كان طموحًا شجاعًا متغطرسًا ومجدًا وظالمًا. ولا نصادف في تمثاله الذي عثر عليه في نمرود والمعروض الآن في المتحف البريطاني أي ظل لابتسامة، ولا حتى أية سمة إنسانية بل نجد أنفسنا أمام تمثال صارم لعاهل متجبر ذي أنف يشبه منقار النسر ونظرة تتبدى عن نظرة مباشرة فاحصة لرئيس يتوقع من رعاياه طاعة مطلقة وفي يديه الرمح والصولجان".

وجه آشور ناصربال حملتين إلى مدينة بابل فقضت على كل تمرد فيها. وهو الذي قام بتجديد مدينة كالخو بالكامل وافتتحها (٨٧٩) ق.م في احتفال رسمي ضم حوالي سبعون ألف شخص وأقيمت احتفالات بالمناسبة لمدة عشرة أيام متتالية.

وفي النص الخاص بتفاصيل هذه المأدبة (الاحتفال) التي أقامها آشور ناصربال الثاني بمناسبة إكمال قصره الشمالي الغربي في كالخو. الذي ورد على مسلة حجرية كبيرة عثر عليها في كالخو وهي الآن محفوظة في متحف الموصل. وفي الكتابة المرقمة (١١٦) والتي بدايتها: (عندما قدس آشور ناصربال ملك بلاد آشور القصر البهيج القصر المليء بالحكمة، دعا آشور الإله العظيم وآلهة البلاد كلها...). وردت أسماء وكميات وتفاصيل المواد الغذائية والمشروبات والفاكهة المقدمة للمدعوين لهذه المناسبة السعيدة والذين بلغ عددهم (٦٩٥٧٤) وكما يلي:

١ - ٤٧٠٧٤ رجل وامرأة المدعوين في أنحاء البلاد الأشورية.

٢ - ٥٠٠٠ من النبلاء والمبعوثين من الدول الصديقة والمجاورة.

٣ - ١٦٠٠٠ سكان كالخو.

٤ - ١٥٠٠ عمال القصر (زريقو).

ويختتم النص هكذا [.... فقدمت لهم الطعام والشراب لعشرة أيام وجعلتهم يستحمون ويدلكون بالزيت. هكذا أكرمت (ضيوفي) واعدتهم إلى بلدانهم بسلام وبهجة]

ولمعرفة عظمة هذا القصر ومدينة كالخو وعاهلها يكفي أن يفكر القارئ بكيفية التخلص من الفضلات الصلبة وفضلات المطبخ بالإضافة إلى كيفية توفير الماء اللازم لمثل هذا العدد من البشر في زمن لم يكن نظام الاسالة والصرف الصحي في المدن معروفًا!؟.

- شيلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤) ق. م

لقد فاق والده في كثرة حملاته العسكرية حيث كرس ثلاثة وثلاثين سنة من عهده الذي دام خمسة وثلاثين عاما لشن الحروب على الأعداء. وكان نصيب بابل منها عندما قام باخماد الثورة التي نشبت فيها ضد الملك البابلي الموالي للدولة الأشورية والتي قادها شقيق الملك البابلي هذه المرة بدعم من القبائل البدو (الاراميين) وبلاد البحر. وبعد طلبْ الملك العون من شيلمنصر الأشوري الذي دحر المتمردين ودخل بابل وقدم الضحايا في معبد مردوخ ومعابد كوثا وبارسيبا وعامل سكان تلك البلاد المقدسة بكرم ورعاية، ويقول بهذا الصدد: " أعددت لشعب بابل وبارسيبا المحمي أحرار الإله العظيمة وليمة فخمة فقدمت لهم الطعام والشراب وكسوتهم بالحلل الزاهية وقدمت لهم الهدايا ". ثم تقدم إلى الجنوب وهزم أعداء بابل الكلديين ولاحق فلولهم في كل مكان.

- شمشي أدد الخامس (٨٢٤ - ٨١١) ق.م

رغم مساعدة بابل له إبان الثورة التي اندلعت في أواخر أيام والده شيلمنصر والتي استمرت أربعة سنوات، إلا انه اضطر بعد تسلمه الحكم إلى توجيه حملة عسكرية ضد بابل نتيجة تحالفها السريع مع عيلام وبعض قبائل بلاد البحر ضد آشور. ولكن شمشي أدد استطاع القضاء على ذلك التحالف. وقدم القرابين لإله بابل عام (٨١١) ق.م كما فعل اسلافه.

- أدد - نيراري الثالث (٨١١ - ٧٨١) ق.م

كان قاصراً فصارت أمه (سمو - رمات) شميرام وصية على العرش الأشوري في بداية توليه السلطة. إلا انه استطاع إدارة دفة الدولة بنجاح ولفترة غير قليلة.

- تجلات بليزر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧) ق.م

مع بدأ عهد الإمبراطورية الأشورية الثانية ومع تسلمه السلطة كانت الدولة منكمشة على ذاتها وقد استقلت معظم أقاليمها التابعة لها وتدهور الاقتصاد أيضا. إلا أنها تمكنت في أيامه من إعادة قوتها وسيطرتها السابقة بل وامتد نفوذها إلى مناطق جديدة لم تكن واقعة تحت سيطرتها في السابق أبدا. وكانت أولى حملاته نحو نهر الكارون والتي دفعت ضغط قبائل البحر عن بابل التي حرص العرش الأشوري على استقرارها السياسي دومًا. حيث ورد اسم الملك البابلي في كتابة عن هذه الحملة، مؤكدة بأنه في حماية الملك الأشوري.

وفي السنوات الأخيرة من حكمه اندلعت ثورة في بابل مرة أخرى والتي قادتها القبائل الكلدية القاطنة في أقصى الجنوب أي منطقة الاهوار، وأزاحت الملك البابلي الموالي للأشوريين. ونصبت احد الشيوخ الكلديين بديلاً عنه. فما كان على هذا الملك القدير إلا أن جهز حملة وقادها بنفسه وسلك الطريق الشرقي إلى بابل ودخلها ونصب نفسه ملكًا عليها بعد أن خرّب منطقة القبيلة العاصية، وكان ذلك في عام (٧٢٩) ق.م وقد عرف هذا الملك في المصادر البابلية ومن ثم العبرية باسم (بولو).

- شيلمنصر الخامس ابن تجلات بليزر (٧٢٦ - ٧٢٢) ق.م

اتبع نفس السياسة مع بابل حيث نصب نفسه ملكًا عليها دون أن يمارس القسوة مع سكانها في الوقت الذي زحف على رأس قوة عسكرية كبيرة إلى بلاد سوريا وفلسطين وحاصر السامرة عاصمة إسرائيل وفتحها عنوة ونقل معظم سكانها إلى مناطق بعيدة واحكم السيطرة عليها.

- سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥) ق.م

بعد تتويج سرجون مباشرة وقعت حادثتان كان لهما أثر ستراتيجي في السياسة الأشورية والشرق الأدنى لمدة مائة عام القادمة، وهما:

تدخل مصر في فلسطين وعيلام في بابل، لعدم استعداد مصر وعيلام لمقارعة دولة كانت في أوج قوتها. فكانت تجربته مع بابل مطابقة لمن سبقه من الملوك الأشوريين. عندما كانت تعلن التمرد والعصيان مع وفاة الملك وتقلد ملك آخر بعده السلطة. فكانت أولى حملاته عليها عندما ثارت القبائل الكلدية كعادتها وزحفت على مدينة بابل وخلعت ملكها الموالي لاشور ونصبت بدلا عنه زعيم الكلديين مردوخ - ابلا - ادينا وتحالفت مع بلاد عيلام لضرب الأشوريين. كانت حملة سرجون الأولى غير حاسمة، لفرار مردوخ إلى بلاد البحر وإعلانه العصيان بعد حين. مما أجبر سرجون إلى العودة إلى بابل ثانية بقوة وحزم أكبر ودخل المدينة البابلية دخول الفاتحين ولقي الأشوريين الترحاب من لدن شعب بابل المحليين - ليس القبائل المتمردة في بلاد البحر - ونصب سرجون نفسه نائبًا للإله في بابل وظلت بابل موالية للدولة الأشورية حتى نهاية عهده.

- سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١) ق.م

هو الأخر شغل معظم فترة حكمه بحل مشكلة بابل الدائمة بالإضافة إلى مشكلة الحوريين. أما بخصوص بابل فكما شاهدنا أنه مع كل حالة تغير ملك في آشور كانت القبائل الكلدية في الجنوب تثور ضد الملك البابلي وتقصيه عن الحكم وتنصب زعيمًا من زعماء القبيلة ملكًا وذلك بدعم ومباركة عيلام، المحرك الأصلي لهؤلاء البدو والمثير الأول للمشاكل في جنوب ومن ثم في وسط البلاد عن طريق تغيير النظام في بابل.

وهذا الذي حصل فعلاً بعد سنتين من تولي سنحاريب الحكم في نينوى، فجهز حملة عليهم وقضى على التمرد. غير أن التمرد البابلي - الكلدي - العيلامي عاد ثانية فقمعهم سنحاريب أيضا. وللمرة الثالثة استمرت عيلام)شوش) في تحريض القبائل وتقديم الدعم العسكري لها. مما جعل سنحاريب أن يهاجم بلاد عيلام - مصدر العقدة البابلية - ويقضي عليها قضاءًا مبرمًا. وقد استعمل السفن التي صنعها في نينوى والتي قادها البحارة الفينيقيين في الاهوار والخليج العربي خلال هذه الحملة.

بعد ذلك توجهت جيوش سنحاريب تجاه بابل فدمرتها بالكامل وسلطت مياه الفرات عليها. بعد فشل سياسة اللين والترضية مع السكان المحليين الضعفاء والمغلوبين على أمرهم أمام دسائس الكلديين وعيلام. وأعلن سنحاريب نفسه ملكًا على بلاد بابل وقضى على المشكلة إلى حين.

ومن ثم زحف بقواته من بابل عبر الصحراء إلى منطقة العريش أو رفح الحالية ويعد هذا أول عبور للصحراء من العراق إلى البحر المتوسط في التاريخ. وربما كان في نيته غزو مصر لأنها كانت تلعب نفس دور عيلام ضد الأشوريين ولكن مع دويلات ساحل المتوسط بالإضافة إلى دولة يهوذا ومدينة اورشليم.

- اسرخدون (٦٨١ - ٦٦٩) ق.م

كانت سياسته تختلف عن سياسة أبيه كثيرًا وخصوصًا مع مدينة بابل والتي كان حاكمًا عليها في فترة ما أيام حكم أبيه، فكان حله للمشكلة البابلية بأسلوب السلم. فهو بعد أن قضى على التمرد فيها إبان اغتيال والده اتبع سياسة اللين وترضية السكان المحليين وأعاد بناء المدينة وقصورها ومعابدها بالاعتماد على علاقاته الشخصية مع بعض البابليين المتنفذين. ويبدو أن هذه السياسة لاقت ترحيبًا من لدن البابليين إلى درجة انه اتخذ بابل قاعدة لهجومه على إيران كما أن محاولات عيلام لإثارة الاضطرابات لم تلق صدى لدى البابليين في تلك الفترة.

وكانت الإلهة في سدرة غضبها أيام سنحاريب قد قررت عدم بناء المدينة الخربة لمدة سبعين سنة. إلا أنهم استطاعوا إيجاد وسيلة للتغلب على هذه العقبة. حيث قلب الإله الرحيم مردوخ كتاب القدر رأسًا على عقب وأمر بتجديد المدينة في السنة الحادية عشرة [١٧] من تاريخ هدمها. لان الرقم (٧٠) في الخط المسماري يتحول إلى (١١) في حالة قلبه على عقب كما هو الحال مع الرقمين (٦ , ٩) في العربية أو اللاتينية حاليًا.

- آشور بانيبال (٦٦٩ - ٦٢٩) ق.م

في أيامه تولى توأمه شمش- شم - اوكن العرش البابلي وحسب الترتيبات التي وضعها والدهما أسرخدون. وسارت الأمور بهدوء في أول الأمر ولكن ما لبثت المنافسة أن ظهرت بين الأخوين، لان العيلاميين وبواسطة الكلديين الدخلاء إلى جنوب البلاد حاولوا جاهدين اشعال نار الفتنة بينهما وقد نجحوا في ذلك وتوتر الوضع بين بابل وآشور. فجهز آشور بانيبال حملة كبيرة على عيلام واحتل عاصمتهم سوسة والمدن المهمة الأخرى ونصب أحد أفراد أسرتها الحاكمة ملكًا عليهم. وسبب ذلك المزيد من الحقد لدى العيلاميين ضد الأشوريين، فزادت محاولاتهم في إشعال نار الحرب بين بابل وآشور.

واتفق ملك عيلام علانية مع شمش - شم - اوكن والقبائل الكلدية وقبائل صحراوية أخرى مثل العرب وبعض حكام سوريا وعقدوا حلفًا عسكريًا ضد آشور.

ولكن آشور بانيبال جهز حملة عسكرية كبيرة وأسرع بالهجوم على بابل ونشبت الحرب المدمرة بين الأخوين واستمرت ثلاث سنوات. انتهت باستسلام بابل وانتحار شمش - شوم - اوكن حارقًا نفسه وعائلته في قصره ببابل.

وكان اشور بانيبال قبل ذلك قد وجه تحذيرًا شديدًا إلى شعب بابل على أمل أن يصغوا إليه لأنه لم يكن يرغب بتدمير بابل مضطرًا كما فعل جده سنحاريب ولكن دون جدوى وهذا نصّ التحذير الملكي لبابل:

"أما تلك الكلمات الجوفاء التي أسمعكم إياها ذلك الأخ العاصي فقد بلغت مسامعي كاملة، وهي ليست إلا ريحًا ذاهبة فلا تصدقوه... لا تصغوا إلى أكاذيبه نهائيا ولا تلطخوا اسمكم المجيد الناصع أمامي وأمام كل العالم بالعار ولا تجعلوا من أنفسكم آثمين بحق الإلهة المقدسة" [١٨].

أما عيلام مابرحت وعادت تتدخل في شؤون بابل فدخلها الجيش الأشوري مرة أخرى ودمرها وحمل آلهتها إلى آشور. ونصب عليها اميرًا مواليًا لاشور)وكان من بين الغنائم املاك وبضائع وذهب وفضة تعود إلى بلاد سومر وأكد وكل ارض بابل التي كان العيلاميون قد سلبوها) [١٩].

سقوط الدولة الأشورية:

تشير الأخبار إلى وفاة اشور بانيبال حوالي (٦٢٧) ق.م في ظروف غامضة واعتلاء العرش الأشوري ابنه اشور - اتل - ايلاني وقد رافقت ذلك ظروف معقدة واضطرابات داخل اشور. وفي الجنوب ظهر في تلك الأثناء زعيم كلدي آخر في بلاد البحر وهو الشيخ نبوبلاصر، تمكن من السيطرة على بابل وتعيين نفسه ملكًا عليها سنة (٦٢٦) ق.م وبدأ يعد العدة للهجوم على آشور مستغلاً حالة الاضطراب والغموض في البلاط الأشوري فتحالف مع الميديين وملكهم كَي - اخسار وهجموا على مدينة آشور عام ٦١٥ ق.م وتم فتحها من قبل نبوبلاصر الكلدي والميديين عام ٦١٤ ق.م وفتحت نينوى عام ٦١٢ ق.م بعد حصار دام ثلاثة أشهر فقط. ودخلت الجيوش الغازية نينوى وأضرمت النيران في قصورها ومعابدها وتعرضت المدينة إلى

السلب والنهب. وقام نبوبلاصر بنقل رماد القصور الأشورية إلى بابل لأنه كان يتوقع أن يجد فيه منصهرات التماثيل والألواح المعدنية المقامة في القاعات والممرات الرئيسية لقصور نينوى.

الخلاصة

منذ القرن الرابع عشر ق.م أيام التسلط الكاشي على بابل، وكما رأينا أصبح البابليون عاجزين عن مجاراة الإله العسكرية الأشورية. ولكن الأشوريين رغم حملاتهم المتكررة على بلاد بابل وحتى احتلالهم لها عسكريًا "إلا أنهم كانوا يعاملون بابل ببعض الاحترام والكياسة باعتبارها موطن المدنية المشتركة للبلدين".

ومنذ (١٢٥٠ - ٩٥٠) ق.م فترة انسياح الشعوب حسب توينبي تعقد الوضع أكثر في جنوب ارض الرافدين ومنطقة بابل تحديدًا بسبب استقرار القبائل الكلدية في الجنوب الغربي ومنطقة الاهوار من البلاد. "وهؤلاء المقتحمون على أطراف بابل لا هم أخرجوا من قبل أهل البلاد كما حصل مع الكوتيين ولا هم اندمجوا مع السكان كما حصل مع الكاشيين. بل ظلوا أجانب يحدوهم الشعور بالعصبية القبلية والروح الحربية الخاصة بهم".

إذ أن البابليين وسائر سكان الوسط لم يكونوا راضين عن وجود هؤلاء الغرباء بين ظهرانيهم "سكان بابل المستقرين الفلاحين وسكان المدن لم يكونوا يرحبون بوجود هؤلاء البدو الرعاة من بلاد العرب"، ولما كان الأشوريون شعب مستقر ومتحضر ومشترك مع شعب بابل بالمصدر الحضاري السومري والاكدي. وكانت آشور بحكم الواقع الجغرافي والديموغرافي البشري، هي الحامي الطبيعي لبابل ضد سكان جبال زاكروس. فكان المفروض أن يكون التقارب والتعاون على أعلى المستويات. إلا أن هذا الحال كان دومًا مقرونًا بشرطين على بابل وأشور القبول بهما وهما:

١- وجوب كون تصرف الأشوريين نحو البابليين بارعًا لبقًا وان لا يسمح للقبائل المقيمة في الجنوب أن تخرج عن الطوق. وفي حالة سيطرة هذه القبائل على بابل يصبح الأشوريين في مأزق ليس أمامهم غير الاحتمالين التاليين: أما أن يقبلوا بخسارة سيطرتهم على بابل وهذا يترتب عليه الكثير من الضرر على الأمن القومي الأشوري، لان حضارة كحضارة العراق المرتكزة على الزراعة والإشغال المعدنية

(تجارة) تحتاج إلى التعاون الوثيق بين المجاميع الرسمية والسياسية في الداخل والموقف المحايد على الأقل من قبل المناطق المجاورة. أو أن يسترجعوا سيطرتهم على بابل بالقوة. وهذا يترتب عليه الكثير من النكث بالالتزام الأخلاقي والديموغرافي! تجاه بابل وأهلها.

٢ - في حالة إتباع أسلوب القوة مع القبائل المتغلغلة في بابل كان ذلك يلحق الإساءة والخسارة المادية بالبابليين ويتم جرح كبريائهم. وهذا بدوره يسبب في احتمالية اتفاق البابليين الطوعي مع القبائل المجتمعة ضد الأشوريين.

وقد مرت العقدة البابلية بهذه الحالة المستعصية أيام تجلات بليزر الثالث في حملته العسكرية الأولى ٧٤٥ ق.م حين قام بتأديب القبائل المشاغبة بموافقة المؤسسة البابلية وكما مرّ ذكره، ولكن في عام ٧٣٤ ق.م خرج الأمر عن سيطرة المؤسسة البابلية.إذ استولى زعيم قبيلة بيت - اموكاني على العرش في بابل. مما اضطر تجلات بيلزر القضاء عليه ولكن لم يملأ الفراغ السياسي إلا عندما قبض على يد مردوخ وأعلن نفسه ملكًا على بابل والجهات الأربعة. وقد تكررت مثل هذه الأحداث عشرات المرات، رغم كون البابليون أصدقاء للأشوريين وخصومًا للقبائل الكلدية المشاغبة في بلاد البحر.

هكذا نرى أن تنظيم العلاقة بين بابل وآشور- العقدة البابلية - لم يكن من الأمور اليسيرة لدى الطرفين فلا بابل واستقرار واستقلال دون آشور، ولا آشور قوية راسخة طليقة القرار والحركة ضد الأعداء دون الاستقرار في بابل. ومن هنا نرى وحسب هذا البحث المقتضب أن:

ا - تسعة عشر ملكًا آشوريًا كانت له نزاعات حدود أو حروب أو اجتياح وتدمير لمدينة بابل أو الدفاع عن مدنهم ضد قوات بابل. ابتداء من ايلوشوما (1920)ق.م وانتهاء بسن - شار - ايشكوم وسقوط نينوى ٦١٢ ق.م وآشور اوبالط الثاني مع سقوط حاران آخر عاصمة آشورية. حسب ما أورده لنا التاريخ وحسب أهميته أو طبقًا لما تم اكتشافه من الكتابات المسمارية بهذا الخصوص وقرائتها. ولكن حقيقة الإحداث هي أكبر من ذلك بكثير، لان المكتشف والمقروء من الكتابات التي تخص

دول العـراق القـديمة ليس إلا القـليل. طبـقًـا لدراسـات وتـوقـعـات علمـاء الاسريولوجي.

ب - أن القبـائل الكلدية البدوية "حسب توينبي" والعنصر العـيلامي المقلق لاستـقرار العراق طوال تاريخه لم يستقر لهـا قرار إلا بإنهاء الحكم الوطني في العراق "سقوط آشور".

ج - مـدينة بابل وحـضارتهـا وشـعبـهـا الذين صـاروا جسـرًا لنقل الأعـداء إلى قلب العواصم الأشـورية. لم يستطيـعوا العـيش والبقاء دون آشـور.إذ نلاحظ أن هؤلاء الكلديين بعـد بسط سيطرتهم علـى وسط وجنوب العراق لم تدم دولتـهم في بابل أكـثـر من (٧٣) سنة، والتي حكـم العـشرون سـنة الأخـيـرة منهـا الملك نبـونائيـد الأشوري من مدينة حاران والذي يرجع أصله إلى "السلالة الملكية الأشورية". وقد قام البابليـون واليهود ذوي الهوى الفارسي بتـشويه سمعة ملكهم نبـونائيد ارضاءاً لأسيادهم الفرس الذين دخلوا بابل دون مقـاومة في ١٢/ ١٠/ ٥٣٩ بقيادة كورش بن قمبيز.

د - ومما يتوجب ذكـره هنا أن نوبارو (هنبِرا) حاكم القطر الأشـوري آنذاك والذي كان عليه حـماية الزاوية اليسرى (الشـمالّة) لجيش بيليشـاصر بن نبونائيد قـد انحاز إلى أعـداء بابل مما عجّل فـي سقـوطها. وربمـا كان ذلك الموقف ناجـمًـا عن رغبـة في الانتـقـام لمدينة أجـداده نينوى، التي كـان قـد زحف عليـهـا الميـديين بدعم واسناد الكلديين في بابل.

هـ- وأخيراً مـهما كان في الأمـر من غموض ومجـال للاجتهاد، فـأن بابل في التاريخ القديم لم تعمّر أكثر من نصف قرن دون آشور فهي عقدتها وهي العقدة في التاريخ الأشوري والمسيرة الأشورية المعاصرة.